



وائل قاقيش ×

الروحانيات الإسلامية تجسيد للطاقة الحسية الإنسانية

بعد الاستماع إلى بعض الأناشيد الدينية التي قدمتها ٤ فرق من أقطار عربية مختلفة في برنامج الروحانيات الإسلامية في دار الأوبرا السلطانية مسقط يوم الأحد الموافق ٢٧ يناير ٢٠١٣ خطرت في بالي ذكريات الطفولة، وسماع هذه الأصوات والابتهالات ولكن ليس على مسرح؛ بل في منزل من المنازل أو في زاوية أو مكان عام، فقد كنت بغاية الشوق لأستمع للفرق المشاركة حتى استعيد ذكريات الماضي، أصغي وأتأمل ناسياً هموم الدنيا ومتاعها حيث تدخل الراحة والطمأنينة في أعماق نفسي وقلبي، ثم أغلق عيني وأحلم بكل ما هو جميل وشاف. فالتأمل والتواصل الإنساني بالخالق دفع الإنسان بالبحث عن طرق وأساليب متعددة للتعبير عن هذه العواطف الوجدانية؛ فكان الإنشاد الديني حينها هو خير تعبير، وأصبحت هذه الأناشيد تشكل دوراً هاماً سواء كانت تقليدية بإنشاد صوتي مفرد أو بمرافقة الدفوف والاهتزاز الجسدي أو الدوران أحياناً وخاصة عند المتصوفة وأحياناً عزفاً على آلات موسيقية. فالإنشاد الديني هو الفن الغنائي الذي يتناول موضوعات لها سمات دينية كالعشق الإلهي، أو مدح الرسول، أو الوجدانية والمملوكات الأعلى وغيرها، وكان الذين يتصدرون لهذا الفن هم عادة من ذوي الأصوات الجميلة الجذابة. ومن مميزات الإنشاد الديني هو الإبداع في الاعتماد على الحناجر البشرية مع محدودية تدخل الآلات الموسيقية، التي استعاض عنها المنشدون بجمال أصواتهم وقصائدهم. وهذه الطرق في التعبير عما يجول بداخل الروح والتي زاولها الناس منذ القدم عرفت بتأثيرها على طرق التعبير الوجداني في الروحانيات الإسلامية. فمثلاً يعتبر فن "القوالي" وهي طريقة إنشاد في باكستان حيث يسمى المنشد (قوال) مأخوذة من اللغة العربية (قال- يقول- قوال) هي مجموعة متصوفة مكونة عادة من أفراد أسرة واحدة تتوارث هذه الأسلوب الإنشادي. تقدم فيها وصلات من الأشعار والقصائد المؤلفة خصيصاً لهذا النوع من "الذكر" والذي تذكر فيه أسماء الأنبياء واسم الله فوق هذه كل الأسماء ومستخدمة آلات موسيقية مثل: الهرمونيوم، الطبلبة الهندي أو الدهل والمثلثات. يستمر الإنشاد الواحد إلى ٢٠ دقيقة أو أكثر حيث تبدأ القوالي بسرعة بطيئة وبارتجالات تذكر فيها أسماء الله والأنبياء بداية، وذلك عن طريق المؤدي الرئيسي، والذي في معظم الأحيان صاحب أجمل صوت، ترافقه آلة الهرمونيوم ثم تليه جوابات من الجوقة الموزعة على جوار المؤدي وخلفه، ثم يبدأ إيقاع بسيط من آلة الطبلبة بمرافقة تصفيق إيقاعي كالذي نسمعه أحياناً في جلسة طرب خليجية. ثم يبدأ اللحن بالارتفاع والسرعة التدريجية مركزاً على كلمة مكررة قد تكون اسم الله أو أحد صفاته أو اسم النبي والرسول وتصل هذه القصيدة الإنشادية إلى قمة الذروة في نغمات عالية وقوية وبمصاحبة الجميع ثم تأخذ بالهبوط التدريجي كما تهبط الطائرة بعد تحليق طويل لتتهبط معها الروح ثانية متلاحمة مع الجسد وكما كانت مثل قبل الانطلاق.

نرى ذات الشيء في الوصلات الموسيقية الطربية في غناء الموشحات والأدوار والقصائد في التراث الموسيقي الشرقي، والتي وجد بعض المنشدين الدينيين نفس الروح في إعادة هذا النوع من الغناء ولكن بدون مصاحبة آلات موسيقية وعن طريق استخدام مقامات شرقية مميزة مثل الرست والحجاز أو البياتي والإيقاعات المتنوعة مثل الوحدة والهجج الكبير أو الأيوب ولكن في هذه الحالة يقوم المنشد باستبدال كلمات الموشح أو القصيدة أو الدور إلى كلام ديني وصوفي له علاقة بالخالق والأنبياء والرسول والصحابة، ويسمى هذا النوع من الاقتباس بالقَد والقُدود، وهي عبارة عن قصائد وطاقاطيق تنسج على لحن الموشح أو القصيدة وتحويله من طابع دنيوي إلى طابع ديني وتسمى حينها بالتواشيح الدينية وأكثر مثلاً على ذلك ما قدمه الشيخ المنشد عبد الحليم مشهور هو واحد من المنشدين الذين استضافتهم دار الأوبرا السلطانية بمسقط حيث قدم ٣ قصائد من أسلوب الإنشاد المصري الأولى "مولاي كتبت رحمة الناس عليك" من ألحان الشيخ زكريا أحمد، "ميلاد طه" من كلمات وألحان الشيخ محمد إسماعيل وينتهي بإنشاد "أسماء الله الحسنى" من ألحان سيد مكاي.

استمرت كثير من هذه الأناشيد إلى يومنا هذا حيث تشعبت الطرق والأساليب تبعاً للمذهب أو الطائفة أو الطريقة أو الهدف ويصعب حصرها في قالب واحد ولكنها في الغالب تسمو إلى هدف واحد هو التقرب من الخالق. ومن هذه الأشكال التي تعتبر موسيقية في أدائها روحانية في أهدافها: الابتهالات والتلاوات والأدعية، الأناشيد والموشحات والقصائد والتي تقام في الموالد والحضرات وليالي الذكر وليالي رمضان والإسراء والمعراج والمناسبات الدينية الأخرى الكثيرة والمتنوعة. أما عن كيفية استخدام المقامات الموسيقية واختلاف الآلات الإيقاعية، فهي تختلف على حسب الموقع الجغرافي والتاريخي والعقائدي والأجواء المحلية والإقليمية ومن قيم وأعراف هذه المجتمع فعلى سبيل المثال في سلطنة عُمان نجد نوعاً من الطقوس أو الشعائر يسمى (المالد) وهي طريقة قديمة يقدمها منشدين المدايح والذكر وهي تشبه نوعاً ما "الزار" في مصر والذي يقام أحياناً للتخلص من الأرواح النجسة والشريرة وبحرق البخور والقيام بنوع من الرقص التعبيري.

كما نرى الآن أن للإنشاد الديني جانب معين ورسالة دعوى إلى عبادة الله الواحد والتمسك بالقيم الإسلامية، أما الجانب الآخر فهو جانب فني، فالإنشاد فن يستفيد من الموسيقى لكنه قائم على الجانب الدعوي الروحاني. وفي مراحل انتشار وتنوع هذا النوع من الروحانيات بدأت تظهر طوائف المتصوفة والدرأويش، وأصبح لكل فئة منشودها وحواريوها، فقد ابتدع الدراويش لأنفسهم طريقة جديدة في التعبير وفي التقرب إلى الله، وهي مجالس الذكر التي راح العامة من الناس يجتمعون لها، وقد أدرك الدراويش أهمية الجانب الوجداني، فأكدوا على مبدأ التأثير بالموسيقى، وأدخلوها ضمن شعائريهم وكانت فلسفتهم أن صنيعهم هذا أدى إلى إقبال الجماهير عليهم وجمع الناس حولهم ومشاركتهم.

من هذا نرى أن الإنشاد الديني والذي يعتبره البعض جزءاً مهماً في الروحانيات الإسلامية ما هو إلا تجسيد طاقات إنسانية حسية وجسدية تؤدي بأصوات جميلة قوية وبنقرات دفوف كنبضات القلوب تسبح الله والرسول وذلك عن طريق أناشيد وابتهالات وتواشيح وقصائد مدح نبوية هدفها الذكرى المتواصلة من النفس البشرية مع الخالق وملائكته وذكر محبته وعظمته وعفة أنبيائه ورسله ونشر المحبة والسلام في الأرض والعفو عند الآخرة.